

القراءة - الثورة الرقمية والمجتمع، مقارنة سوسيولوجية

بلهوارى حاج⁽¹⁾

مقدمة:

قد يكون الكثير منا قد شاهد تلك الطواير المفعمة بالمصطفين المتلهفين لاقتناء نسخة من كتاب "هاري بوتر" أمام مكتبات البيع في مدن العالم الأوروبي والأمريكي والآسيوي، حيث تحول صدور الكتاب إلى حدث وأي حدث ! هذه الرغبة في عيون القراء المصطفين في الطابور الواحد بعد منتصف الليل تجعلنا نتساءل: كيف تصنع الشعوب قراءاً ؟ وكيف أصبحت القراءة صلاة ؟ وكيف تصنع الأمم من كتابها وكتبها حدثاً عظيماً ؟ ولماذا نحن أكثر الشعوب عداوة للكتاب ؟ في الوقت نفسه نقول عن أنفسنا أمة الكتاب، ولكن في الواقع نحن أبعد ما نكون عن مثل هذا التوصيف الرمزي الرائع

لا أحد يجادل في ضعف الفعل القرائي المتفشي بين المتعلمين يصل حالة التوقف، فالأغلبية الساحقة مصابة بتعب قرائي، كثيرون هم المتخرجون الذين لم يقتنوا كتاباً منذ تخرجهم أو توظيفهم، ففي الوطن العربي كله حوالي 33 جريدة لكل ألف مواطن مقابل ما يزيد على 300 جريدة لكل مواطن في الغرب.

إذن القراءة في مجتمعاتنا في حالة يائسة، فهي تحتل المواقع المتدنية في تقارير "اليونسكو" عن معدلات القراءة وإنتاج الكتب وإصدار الصحف، فمعظم الأفراد على اختلاف الأعمار ومستويات التعليم عازف عن القراءة ولا عجب أن يستشري هذا العزوف في مؤسساتنا التربوية والإعلامية، الثقافية وحتى الأكاديمية.

وعزوف العرب عن القراءة فيه تناقض حاد مع طبيعة الثقافة العربية التي يصفها البعض بأنها "ثقافة نص"، والنص القرآني أكثر النصوص حثاً على القراءة.

تعدّ هذه الورقة البحثية محاولة قراءة سوسيولوجية لظاهرة القراءة في زمن الثورة الرقمية، كما تمثل محاولة للحفر في واقع موازٍ للواقع الذي دأبت الدراسات السوسيولوجية الحفر فيه. وهو الواقع الإلكتروني أو ما يسمى "بالفضاء المعلوماتي". هذا وإن كنا لا ندري إلى أي مدى قد يصحّ هذا اللفظ الأخير، وإلى أي حد يستجيب لمواصفات المفهوم العلمي طبقاً لأدبيات سوسيولوجيا المجال أو الفضاء، فإن الأكيد أن جملة ما أصبح يبرز ضمن هذا المجال الموازي لواقعنا الاجتماعي الذي عهدنا الاشتغال عليه من ظواهر وممارسات، أضحى يتطلب بدوره وتركيزاً أعمق من قبل المختصين والدارسين في الحقل السويولوجي.

ترتبط الإشكالية المحورية التي تطرح ضمن طيات هذا البحث بالتساؤل عن مدى تأثير الفعل القرائي بهذا الفضاء الجديد، وهل يمكن اعتبار زمن التكنولوجيا هو إعلان عن موت الكتاب؟ وهل أنهى زمن الشاشة عصر الورق؟

(1) - أستاذ بكلية العلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم.

أولاً - اشكالية القراءة في عصر الثورة الرقمية:

أصبح وقتنا الحالي لحظة مرجعية لإحدى أكبر الثورات التي عرفتها البشرية، نحن شهود عيان لحدث تاريخي اجتماعي متميّز ! حيث أصبح الإنسان أمام محيط رقمي، متعاملاً مع المصنفات ودلالات والمعلومات، خاضعاً لمعرفة جديدة التي هي حصيلة تطورات التي غيّرت منحي فكره ومساره.

فالتكنولوجيا الرقمية للاتصال هي شكل من أشكال تفوّق عقل الإنسان المفكر والذات العارفة، فبعد الـ "أمو سايبان" الذي كان يحاول التحكم في الأجناس الحية، والـ "أمو فاير" الذي يتقن الآلات المصنفة، والـ "أمو إيكونوميكوس" الذي يمارس الأنشطة الاقتصادية، ها هو فضاء العالم "الإنسان التكافلي" الذي يحيا في انسجام مع الأساليب الحديثة والتكنولوجية المتطورة، فهو في "تفاعل وتداخل" مع معطيات العالم والمحيط الذي يعيش فيه، نحن نشهد لوحدة تدابور وتعاون بين الإنسان، الآلات، شبكة المعلومات والمجتمع⁽²⁾.

لقد أدّت هذه الثورة الرقمية إلى فتح آفاق أخرى للإنسان، فقد تغيّر مفهوم الزمن وأصبح مرتبطاً إلى حد كبير بوسائل الاتصال، زمن جديد بإيقاعات جديدة، تخضع لمعرفة جديدة، ويأذن بانثاق إنسان أسير المستقبل ومشدود بحبال التسارع والتقدم. هذا ما يمهد لولادة هوية جديدة.

وعليه وعبر كل هذه التداعيات التي تجعل الفرد في موقف تساؤل، حيرة، قلق معرفي، يتوقع البعض أن تكنولوجيا المعلومات توشك أن تحدث انقلاباً تاماً في بيئة القراءة، وذلك بفضل التوسع الهائل في استخدام الوسائط المتعددة والنظم الذكية لاسترجاع المعلومات والتي من خلالها تطوير قراءة مختلفة يبحر فيها القارئ في فضاء رمزي غير محدود من النصوص والأشكال والأصوات والمؤثرات السمعية-البصرية، يمكن له أن يتفاعل معها القارئ بصورة دينامية.

وهكذا تمثل الثورة الرقمية وعلى رأسها شبكة "الإنترنت" أداة ومسرحاً لهجرة مكثفة إلى العالم الافتراضي، ونركز هنا على مجتمع الطلبة والأساتذة الذين يملك هذه التقنية. فمع الهاتف والحاسوب يعرف الجسد البشري وحواسه دخولا في شبكة من التواصل والتنقلات، فأصبح من الصعب تحديد هذا الجسد باعتباره وحدة مادية محصورة في الزمان والمكان، إذ ثمة من يقول اليوم بضرورة الحديث عن "الجسد المتشعب" على غرار ما يتم الحديث عنه في حقل الإعلاميات عن "النص المتشعب" الذي هو نص غير خطي، أو مجموعة من العقد المرتبطة فيما بينها عبر التداعيات بارتباطات مرئية، تتيح السفر والتنقل من معلومة لأخرى. وبناء على هذه التغيرات هل ستتغير القراءة في عصر المعلومات. وهل يجوز لنا أن نقول وداعاً لقراءة المطالعة والتلقي ومرحباً بقراءة التفاعل والابحار؟

⁽²⁾- De Rosnay (J) : L'homme symbiotique, Paris, ed. Seuil, 1995.

ثانياً- حول سوسولوجية القراءة:

إذا كان فعل الكتابة يبدو في أبسط مظاهره، فعلاً فردياً، يصدر عن ذات كاتبه، فإنه لا يتحقق إلا من خلال فعل ملازم له: فعل القراءة. غير أن هذا الأخير لا يتجسد من خلال ذات واحدة، ولكن من ذوات متعددة، تشكل طبقة غير متجانسة تتباين فيها المستويات والأعمار، وتتضارب فيها الأهواء والتوجهات، فترسم لها الثقافات خلفيات شتى⁽³⁾، لا يمكن رصدها وحصرها إلا على وجه العموم وبالتالي لا يمكن فصل القراءة وإن تعددت أشكالها العلمية والأدبية والفلسفية عن الأطر الاجتماعية التي تنخرط فيها كما يقول "جورج غيرفيتش" (Gurvitch)، ولذلك فدور الباحث في الحقل السوسولوجي هو البحث عن الإسهام الحقيقي للمجتمع في تشكيل أفكارنا ضمن الآليات الخاصة للتفكير الجمعي، وضمن السمات الخاصة للواقع الجماعي، حسب "إميل دوركايم"⁽⁴⁾.

وعليه فالفعل القرائي لا يمكن عزله بعيداً عن تأثير السياقات التاريخية والمرجعيات الثقافية للمجتمع، فالشواهد التاريخية تكذب هذا الطرح، وتكشف عن عدم انفصام البنية الثقافية عن بقية بنية المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فالفكر والمجتمع في حركة دياليكتية مستمرة.

يتجسد هذا الطرح في أعمال "فيكو" (VICO) في كتابه "مبادئ العلم الجديد" لربطه بين الأنواع الأدبية والواقع الاجتماعي، حيث رأى أن كل نوع إنما يجسد مرحلة اجتماعية يسود فيها ذوق ما. يعلي من شأن هذا النوع دون الآخر، وذلك لوجود تناقض بين النوع والواقع تأثيراً وتأثيراً، الأمر الذي جعل "فيكو" يربط بين الملاحم والمجتمعات العشائرية، وفن الدراما وظهور المدينة/الدولة، وفن الرواية والمطبوعة وانتشار التعليم، وقد رأى فيها بعض الدارسين العرب تطوراً للفكر الخلدوني.⁽⁵⁾

وهذه نظرة متقدمة، تنفتح ليس على كون القراءة ظاهرة اجتماعية، وإنما على كونها ممارسة اجتماعية تتفاعل من خلال عاملي الزمان والمكان والظروف التطويرية للمجتمع.

ويتطور الأمر قليلاً مع "مدام دي ستايل" ولكن من وجهة حتمية، حيث ترى أن كل عمل أدبي يتغلغل في بيئة اجتماعية وجغرافية ما، حيث يؤدي وظائف محددة بها، ولا حاجة إلى أي حكم قيمي، فكل شيء وجد لأنه يجب أن يوجد. ولم يكن كتابها "الأدب في علاقته بالمؤسسات الاجتماعية إلا محاولة لإبراز مدى تأثير الدين والعادات والقوانين في الأدب، ومدى تأثير هذا الأخير فيها وفي القوانين.

وكلها إرهافات، يمكن اعتبارها الحجر الأساس لبناء تصوّر سوسولوجي لظاهرة القراءة في تفاعلها مع غيرها في الظواهر الاجتماعية. واعتبار القراءة منظومة، معناه النظر إليها كنظام متشابك من العلاقات داخل

(3) - عبد الغني عماد: سوسولوجية الثقافة، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 261.

(4) - نور الدين زمام: حول سوسولوجية المتحف الجزائري، مجلة إضافات، العدد الأول، شتاء 2008.

(5) - صبري حافظ: الأدب و المجتمع. م الفصول ع 2 القاهرة 1881 ص 66.

المنظومة الاجتماعية جملة، وقد رأى فيها "رونيه ويليك" مؤسسة اجتماعية أداها اللغة تمثل الحياة في أبعادها المختلفة، ابتداءً من: كون المؤلف فرداً مسكوناً بهوم واقع يحسده من خلال إبداع يروم له أُنْناً صاغية تقاسمه الأحاسيس والمشاعر والأحلام، فيمازج بين الذاتي والجماعي من خلال فعل الكتابة. ذلك لأن الفرد كما يراه "غولدمان": "كائن شديد التعقيد، متعدد الوظائف في غمار الحياة الاجتماعية ولهذا فهناك ما لا حصر له من الوسائط المتنوعة بين تفكيره والواقع المادي من حوله، مما يجعل من الصعب حصره في إطار نظام اجتماعي آلي مبسط".

فالثقافة المجتمعية هي التصور الهيكلي الذي ينتظم الإنسان ويقنن نشاطه ويكفل حاجاته، ويتطور بتطورها، وسواء: "كانت وظيفة القراءة كمنظومة اجتماعية إشباع الحاجة بالترفيه عن الإنسان "هترزل" أو بدون تعويض كما يري "بارسون" أو تحويل القيمة الأخلاقية إلى قيمة جمالية وذوقية "ماكس فيبر" فإن هذه الآراء تبين أنّ الثقافة المجتمعية لا تقوم بوظيفة واحدة، وإنما بمجموعة من الوظائف المتعددة التي تشبع من خلالها كثيراً من حاجات الإنسان الأساسية والثانوية".⁽⁶⁾

وقد توجب من جراء ذلك على الباحث في سوسيولوجيا القراءة، أن يحاول في المقام الأول اكتشاف البنية المسؤولة عن العمل كله، وبأي طريقة تؤدي وظيفتها التوصيلية بين أفراد المنظومة. فالسوسيولوجيا تنهج لذلك سبلاً متعددة كالانثروبولوجيا التاريخ علم النفس الأدب علوم اللغة وغيرها من المنظورات. يرى "بيار بورديو" إذ من الممكن: "نرى أن العنصر الاجتماعي هو الذي يحدد الاختيارات الجمالية في نفس الوقت الذي تصبح فيه دراسة العمل وخواصه البنائية من عوامل فهم مجتمع ما بشكل واضح".⁽⁷⁾

فمن الواضح -إذن- أن النظرة إلى الفعل القرائي لا تبغي التوقف عند التبادل الحاصل بين الكتاب والقارئ من جهة، وبين الواقع والتقارير المنظمات الإقليمية والدولية من جهة أخرى، ولكن الحديث عن الفعل القرائي كممارسة يبغي البحث عن الآليات المتحركة فيه من الخارج والداخل: فالظرف الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي عمل قائم إزاء هذه الممارسة.

نحو قراءة جديدة في مجتمع معرفة جديد

لا شك أن عصر المعلومات يتبع فرصاً كثيرة لاكتساب المعرفة، ولكن ما أسرع أن تتقادم هذه المعرفة وتحل محلها معرفة أصدق وأعمق. وهكذا يتسلل الجهل من خلال ما يمكن أن نطلق عليه "فجوة القراءة" الفجوة بين معدل إنتاج المعرفة ومعدل القراءة. وعليه لازالت القراءة شاغل الجميع، شاغل التربوي والأكاديمي والإعلامي والمهني واللاهوتي، وتعاضل دورها لتصبح محور التنظير النقدي والفكري.

(6) - محمد السويدي: مفاهيم في علم الاجتماع الثقافي. المؤسسة القطنية للكتاب والدار التونسية، ط 1، ص 43.

(7) - فاروق أحمد مصطفى. محمود عباس ابراهيم: الانثروبولوجيا الثقافية، دار المعرفة الجامعية، ص 204.

فالقراءة في تفكيكية "جاك دريدا" على سبيل المثال هي محور نظريته النقدية وأداته لزعزعة الأسس التي قامت عليها الفلسفة الغربية.⁽⁸⁾ فقد اهتمدى كثير من المفكرين إلى أن إعادة قراءة النصوص المحورية للتراث الإنساني هي مدخل أساسي للكشف عما يميّز معرفة الماضي من قصور بغية إنتاج معرفة أكثر صلابة وقدرة على الاستمرارية والتجدد، فميشال فوكو يطالبنا بالتنقيب في تراث معارفنا القديمة وإعادة قراءة خطابات الماضي من منظور حاضرننا في سياق تاريخي متعاقب، بهدف معرفة آليات إنتاج الخطاب وأساليب توظيفه معرفيا وثقافيا ومؤسسيا. وبالتالي نحن دائما في حاجة إلى إعادة قراءة بنيوية كلود ليفي ستروس، رأسمال كارل ماركس، مقدمة ابن خلدون...

من زاوية أخرى، تؤدي القراءة دوراً مؤثراً في نشر الوعي لدى الفرد، وتوجيه سلوكه الاجتماعي وتعميق إدراكه بمكان الحياة الحقيقية داخله.

وهي مقومات باتت لازمة كي يتصدى لمجتمع يحاول صياغة أفراد على نمط معياري مقنن، جاهز من قبل. وللقراءة تأثيرها الاجتماعي المباشر في بث الأفكار والتأثير في الرأي العام وتشكيل الذوق العام.

أصبحنا نعاني في وقتنا الراهن من انفصال حاد بين واقع الحياة وقدر معرفتنا عنه، ومدى قدراتنا في التفاعل معه، فالقراءة وبدون أي شك من أحسن الوسائل للتقليل من حدة هذا الانفصال، فوسيط القراءة هو السبيل الوحيد لإدراك هذا الواقع، ووسيلتنا لاكتساب هذه المعرفة وممارسة تلك القدرات.

شأنها شأن معظم النشاطات الإنسانية، أضحت القراءة في عصر المعلومات إشكالية، فلم تعد أسئلة القراءة: لماذا نقرأ؟ وماذا نقرأ؟ وكيف نقرأ؟ من البديهيات، بل أصبحت قضايا حاسمة لا بد أن تؤخذ بجديّة أكبر بكثير مما كانت عليه في الحاضر.

نحن أمام حالة وجود تمثل المعرفة عصبه، فهل ستضطلع المدرسة والجامعة بدورها في بلورة مجتمع المعرفة الذي يقوم أساساً على نشر المعرفة وإنتاجها وتوظيفها بكفاءة في جميع مجالات النشاط الإنساني (الاقتصاد والمجتمع المدني، السياسة والحياة الخاصة...)، لأن المعرفة هي سبيل بلوغ الغايات الإنسانية، وهي محرك قوي للتحويلات الاجتماعية والاقتصادية..

وثمة ارتباط بين المعرفة والقوة الإنتاجية للمجتمع، وتتضح هذه الصلة بين المعرفة والإنتاج بأحلى صورها في الأنشطة الإنتاجية ذات القيمة المضافة العالية التي تقوم على كثافة المعرفة، إذا كانت هذه هي قيمة القراءة التي لم تضاهيها قيمة فأين نحن منها !

الخاتمة

وأمام هذه الأوضاع المثقلة بالمعوقات المتراكمة والحافلة بالمستجدات والمتغيرات، وأمام الحاجة إلى استثمار المقدرات الفكرية والإبداعية والإنتاجية للإنسان، تبقى القراءة الملاذ والمطلب الرئيسي وأحد أهم اشتراطات

(8) - انظر الى كتاب الاختلاف لجاك دريدا.

اللحظة الحضارية. فنحن لسنا أكثر تكنولوجية من الالمان والانجليز والفرنسيين. وعليه من غير الممكن مقارنة شانا ثقافيا كالفعل القرائي مقارنة كمية تستند الى ارقام ونسب ومعدلات وكأننا نتعامل مع مسألة ذات صبغة كمية أو اقتصادية.